DE GAULLE (1890-1970)

الفصل السابع عشر

ديجول والاستقرار الدستوري

كانت المسالة الجزائرية في طليعة اهتمامات ديجول. فقام بعدة زيارات إليها بعد توليه رئاسة الحكومة، حيث أدرك أن الحل الوحيد هو منحها الاستقلال. وفي تشرين الأول ١٩٥٨ أطلق نداء لتحقيق «سلام الشجعان»، وبعد توليه رئاسة الجمهورية عرض على الجزائريين منحهم حكما ذاتيا، ولكن الأزمة لم تحل إلا عند التوصل إلى اتفاقات آفيان بين الحكومة الفرنسية و«الجبهة الوطنية لتحرير الجزائر»، والتي وافق عليها الشعبان الفرنسي والجزائري في استفتاء عام، وبنتيجتها حصلت الجزائر على استقلالها التام بعد حل مسالة الجزائر عمل ديجول على تحسين صورة فرنسا لدى العالم وتقوية مركزها الدولي وتمايزها عن سواها من الدول.

كانت الجمهورية الرابعة قد أقرت سياسة إنتاج الأسلحة النووية. وفي شباط ١٩٦٠ فجرت فرنسا قنبلتها النووية الأولى. وراح ديجول يعمل على سحب فرنسا تدريجيا من قوات حلف شمال الأطلسي رافضا الوصاية الأمريكية على السياسة الفرنسية. وقد اكتمل ذلك الانسحاب عام ١٩٦٦، وإن كانت فرنسا قد بقيت عضوا في الحلف. ومن جهة أخرى عمل ديجول على أن تكون أوروبا «أوروبية فعلا»، فقوى علاقاته بألمانيا الغربية، وفي ٢٢ كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٣ صدرت معاهدة الآليزيه التي أنشئت بموجبها السوق الأوروبية المشتركة، وعمل ديجول على إقصاء بريطانيا عنها باعتبارها واقعة تحت الوصاية الأميركية. وجاءت «السياسة الزراعية المشتركة»، بعد عدة أشهر، لتعزز من قوة وتأثير السوق الأوروبية المشتركة ومركزها الدولي.

وتابع ديجول سياسة تحسين العلاقات مع البلدان التي كانت في السابق مستعمرات فرنسية ومع سواها من بلدان العالم الثالث داعيا إلى تطبيق سياسة «رفع أيدي» الدول الكبرى عن الدول الصغرى وعدم التدخل بشؤونها أو ممارسة الضغوط عليها لكي تتخذ مواقف مؤيدة لهذه الدولة الكبرى أو تلك. وقد أدى ذلك إلى قيام علاقات جيدة ومتينة بين فرنسا ومعظم بلدان آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية. واعترف بجمهورية الصين الشعبية(١٩٦٤)، وندد بسياسة أميركا وتورطها في فيتنام في خطاب ألقاه أثناء زيارة لكمبوديا (١٩٦٦)، كما ندد بالعدوان الإسرائيلي على البلدان العربية (٥ حزيران ١٩٦٧) داعيا إسرائيل إلى الانسحاب من «الأراضي» التي احتلتها خلال حرب الأيام الستة. وتوج ذلك كله بخطابه الشهير: « عاشت كويبيك حرة» (تموز ١٩٦٧) والذي تضمن نقدا شديدا للإمبريالية الأميركية ودفاعا عن الوجود التاريخي الفرنسي في أمريكا الشمالية، ملمحا إلى الدور الذي لعبته القوات الفرنسية بقيادة لافاييت في تحقيق استقلال الولايات المتحدة نفسها.

ومن جهة أخرى فإن رغبة ديجول في تكوين أوروبا قوية «من الأطلسي إلى الأورال»، جعلته يقترب من الاتحاد السوفيتي رافعا شعار « التفهم والتفاهم والتعاون» مع الدولة الشيوعية. وقد بدأ ذلك بزيارة قام بها إلى موسكو في حزيران ١٩٦٦. وبذلك صارت فرنسا قوة عالمية مرموقة، يحسب لها حساب في السياسة الدولية.

لم يكن بإمكان فرنسا تحقيق ذلك المركز واكتساب القوة لولا الاستقرار الدستوري في الداخل. وهذا ما فعله ديجول فور تسلمه رئاسة الحكومة، وطلبه إقرار دستور جديد؛ وهو الذي عرف باسم دستور الجمهورية الخامسة. وقد تابع ذلك عبر سلسلة إصلاحات دستورية، أهمها التشريع الذي نظم انتخابات رئاسة الجمهورية ونقلها من مجلس النواب إلى الشعب مباشرة. لقد كان ديجول قويا خلال فترة حكمه الأولى، خصوصا أنه جاء إلى الحكم بأكثرية شبه مطلقة وبمناشدة كافة السياسيين له أن يتولى الحكم كمنقذ، ولكنه أراد أن يتمتع مركز رئاسة الجمهورية نفسه بتلك القوة والسلطة والاستقلالية عن مجلس النواب وعن الألاعيب السياسية الداخلية على اختلافها. وقد كان هو نفسه أول رئيس ينتخبه الشعب الفرنسي عام ١٩٦٥، بعد انتهاء ولايته الأولى. وكان منافسه في تلك الانتخابات الرئيس الفرنسي (اللاحق) فرانسوا ميتران.

لقد عاشت فرنسا منذ نهاية الجمهورية الرابعة وطوال الجمهورية الخامسة فترة من الازدهار الاقتصادي الذي لم تشهده من قبل، وكانت البطالة شبه معدومة، والخدمات الاجتماعية على أفضل ما يرام، ومع ذلك فقد نشبت أحداث أيار ١٩٦٨ التي شاركت فيها جماعات من الطلاب والعمال، والتي وصف أحد المعلقين الصحفيين المشاركين بها بأنهم جماعة من « الضجرانين من استقرار الحياة السياسية والاجتماعية» أكثر مما هم جماعة من أصحاب المطالب. ولم يستبعد معلقون آخرون أن تكون للصهيونية العالمية التي ساءها موقف فرنسا من حرب حزيران بعد إحدى عشرة سنة فقط على مشاركتهما معا في العدوان الثلاثي على مصر، وخصوصا أن زعيم الطلاب كان يهوديا اسمه كوهين بانديت، وقد اختفى عن مسرح الأحداث بعد اعتزال ديجول.

على أية حال، حاول ديجول حل الأزمة باقتراح إصلاحات اجتماعية رفضها مجلس النواب. فقام ديجول بحله . وفي نيسان من العام التالي دعا ديجول الشعب الفرنسي إلى استفتاء على مسودة إصلاحات مؤكدا أنه سيستقيل من منصبه إذا لم يوافق الشعب على تلك الإصلاحات. وقد جرى ذلك الاستفتاء في السابع والعشرين من الشهر نفسه، وكانت نتيجته سقوط الاقتراحات بأكثرية ٥٢.٤٪. ووفى ديجول بوعده فاستقال في اليوم التالي.

أمضى ديجول فترة تقاعده القصيرة في قرية صغيرة اسمها كولومباي لا دو زيجليز ، ممتنعا عن الإدلاء ببيانات أو تصاريح سياسية، متابعا كتابة مذكراته التي بدأها عام ١٩٥٤. ولكنه لم يستطع أن ينجز سوى الجزء الأول منها «ذكريات الأمل» قبل أن توافيه المنية في التاسع من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٠. وقد أقيم قداس رسمي عن راحة نفسه في كنيسة نوتردام دو باريس بحضور الرسميين الفرنسيين ورؤساء دول العالم،فيما كان جثمانه يوارى الثرى في كولومباي بحضور أفراد عائلته ورفاقه في السلاح وأبناء القرية المعدودين، ومن أهم إنجازاته :

- الرئيس «شارل ديجول» حظر بيع السلاح لإسرائيل..
- ووقف إلى جانب الشعب العربي عام ١٩٦٧.

في كل دولة من دول العالم هناك أعلام لا تُنسى لأنها عملت على مصلحة الشعوب

والنهوض بها نحو الأمام، والشعب الفرنسي ينظر إلى الزعيم «شارل ديجول» على أنه الأب الروحي الذي يعود له الفضل الكبير في استقلال «فرنسا» وتخليصها من الجيوش النازية إبان الحرب العالمية الثانية، فهو لم يتوقف عن دعم شعبه، فعندما نُفي إلى «لندن» أطلق الشعارات التي كانت تلهب الفرنسيين وتدفعهم إلى المقاومة.

obeikandl.com